الى الدكتور البصير

بقلم : السيد صدر الدين احمد

وجدت بالتجربة انني لا اطيق الصمت عن كل ما يستفز اهتمامي ويبتعث فضولي الى النقد الصريح المترفع عن سائر معاني التخرص والاعنات . واشهد اني لقيت من نتاج هذا الاهتمام وهذا الفضول ارهق ما يمكن ان يلقاه أي انسان ذي لسان يأبى أن يستعير لتفكيره عصباً واحداً من اعصاب التدليس ، ولكن مع ذلك وبرغم ما اصابني وما ربما يصيبني ايضا من رهق فانا ما ازال اراني شغوفا بهذا اللون من النقد ولا يسعني التخلي عنه إذ لا يهدف الى غير التبصير والافادة .

منذ بضعة أيام قرأت للدكتور محمد مهدي البصير فصولاً لا اذكر عددها بالضبط من كتابه الذي صدر حديثاً عن (نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر) وفي الواقع انني ألفيته من خلالها جهبذاً اديباً غيوراً كأعظم الغيارى على إحياء ما اوشك ان ينقرض انقراضاً من آثار ادبائنا السلاف الذين بادوا تباعا مع القرن المنصرم ؛ فهو من ثمة قد تسنم المركز الخليق بفضله على تاريخ الادب اذ بعث اولئك الشعراء بعثاً جديداً الى حياة الفن والشعور والجمال ، غير ان الذي لابد لي أن أقوله ضمناً والذي لا ابيح لنفسي اخفاءه على الناس ان الدكتور البصير لم يكن على العموم موفقاً في جملة احكامه ومقاييسه وحججه على نفر من اولئك الشعراء . ففي اثباج حديثه عن منشأ غزل السيد ابراهيم الطباطبائي (ص ١٤٦) يقول (إن خفة طبعه خلقت منه صورة مصغرة لعمر بن ابي ربيعة) ثم يقول (واني لم أفترض ذلك افتراضاً ولم اتخيله تخيلا وانما استقيته من شعره) .

فالدكتور يقرر ههنا انه قد استقى رأيه في غزل هذا الشاعر من منابع شعره ولم يستند قط في حكمه الى الخيال والافتراض . وكذلك يفعل حين يتحدث في (ص ٢٨٠) عن غزل الشيخ جعفر الشرقي فيقول (إما خفة طبعه وكثرة تسامحه فتدلنا عليه صفحات من غزله تشف عن كلفه الشديد بالجمال المسيحي السافر وعن صلاته المتينة بالمسيحيين رغم التعصب الديني الذي كان سائداً على عهده) ثم يعزز رأيه هذا بقصيدة للشيخ منها :-

(حي اقمار النصارى تخذت في الكرخ دار
وظباء في كناس ما تألفن النفارا)

فهو يقرر ههنا ايضا انه قد اكتشف رأيه وحكمه على هذا الشاعر من طبيعة غزله ووضاءة تصريحه الفذ الجرئي . وكذلك يفعل في (ص ٢٠٨) حين يستعرض بيتاً شعراً قاله عبد الباقي العمري يعابث به الشيخ عباس الشيخ علي اذ يقول :

حبيب اذا انشا (صريع اذا انتشا) بديع اذا وشى غريض اذا غنى

فيحكم عليه بأنه كان يقارف الخمرة من اجل ان عبد الباقي العمري قال فيه : (صريع آذا انتشا) ليس غير .

وعلى الاجمال يتضح جهراً مما سبق لي اقتضابه ان الدكتور لم يشأ إلا ان يتخذ من اشعار هؤلاء الشعراء حججاً قطعية على مكنونات نفوسهم واذواقهم جميعاً ، بيد انه حين يتحدث عن غزل السيد حيدر الحلي (ص ٥٠ و ٥١ و ٥٢) يناقض طريقته هذه في اصطفاء حججه من بين ما قاله الشعراء انفسهم على أنفسهم فهو يقول عن غزل السيد الحلي (ليس هناك ادنى شك في ان السيد حيدر لم يقع في شرك الحب ولم يخضع لسلطان الغرام في يوم من الايام) أي ان كل ما قاله السيد الحلي في الغزل لا يصح — في رأي الدكتور — اعتباره حجة عليه بالمرة ، مع انه هو نفسه القائل :

حدرت باطراف البنان نقابها مرحاً فاخجل حسنها اترابها
وجلت غداة تبسمت عن واضح تستعذب العشاق فيه عذابها
قتالة اللحظات فهي اذا رنت وجد المشوق سهامها اهدابها
سارقتها النظر المريب بمقلة لم تقض من لحاتها آرابها
ولقد دعوت وما دعوت مجيبة ودعت بقلبي للهوى فاجابها

أفليس تناقض الدكتور صريحا ثمة في مقياس حكمه على نفر من هؤلاء الشعراء ؟

وكذلك يفعل حين يتحدث في (ص ٢٢ و ٢٣) عن غزل السيد محمد سعيد إذ يقول [ان سمة الحبوبي الفقيه تأبى ذلك كل الاباء) مع ان السيد الحبوبي نفسه هو القائل في الغزل :

ضممتها فثنت وهي قائلة بالغنج : رفقاً لقد فصمت اطواقي

وهو القائل في الخمرة :

خفف طبعي شربها مثلما دبيبها ثقل اجفاني

والآن يحسن بنا أن ننتقل الى الكلام عن لون آخر من تنافر آراء الدكتور في اشعار رهط آخر من اولئك الشعراء ... فهو حين ينصرف الى الحديث عن اصالة الشيخ عباس النجفي في الفخر (ص ٢١١) يقول [وأنا عندما أصف فخره بالاصالة استثني بالطبع فخره الذي يتشدق فيه بقدرته على الجلاد والطراد وشجاعته في ميادين القتال ؛ فليس من شك في ان فخره هذا محض ادعاء] أي ان الدكتور يأبى ههنا أن يستمد من هذا النحو من الشعر مصداقا ينم عن قدرة قائله على الجلاد وممارسة الحرب ، ولكنه في « ص ٢٨٩ » يتقبل قبولا غير مستثنى بالطبع فخر الشيخ محمد حسن كبه في توافره على السيوف وقدرته على تعبئة المنايا في الحروب وفي دجا الخطوب إذ يقول :

منا الكرام وفي نعمائنا انكشفت دجا الخطوب وفي اسيافنا الاجل

وليتني ادري بعد هذا لماذا لم يبسط الدكتور رأيه في شأن الشيخ جعفر الشرقي « ص ٢٨١ » حيث يقول :

(هذه القهوة هذى هذه المنهي عنها
كيف تدعى بحرام وأنا اشرب منها)

وانا واثق تمام الثقة بأن هذا الشاعر ومن عاصره من لداته وانداده كانوا جميعا من العفة والتقوى بالدرجة التي لا يزكو عندها الطعن عليهم أو تأثيمهم في قليل أو كثير .

وشيء آخر اخشى ان انساه اذا لم اسارع بهذه اللحظة الى تسجيله والتعقيب عليه . ذلك بأن الدكتور قد تبرع في (ص٧٢) ان يسمي الشيخ صالح التميمي بابي تمام الصغير وان يسمي عبد الغفار الاخرس في « ص ١١٤ » بابي نؤاس القرن التاسع عشر وان يسمي الشيخ محمد نوح في « ص ١٣٠ » بخليفة ابن الفارض في القرن التاسع عشر . غير اني في الحقيقة اجهل الباعث له الى منحه إياهم هذه التسميات الضخمة المستحدثة في حالة فقدان أية ضرورة اليها وعدم وجود أية اشارة أو موازنة او مفاضلة له بينهم في كل احاديثه عنهم ؛ وإلا فما الجدوى منها ؟ ولماذا يلوي مقاييس حكمه بعضها على بعض ولا يجمع بينها تحت قاعدة راسخة مستقيمة الانحاء ؟

واخيراً احب ان استعرف — وأنا استغرب — لماذا امتنع الدكتور ان يذهب في احاديثه مذهب الناقد المحقق مع اولئك الشعراء الذين كانوا مادة احاديثه وآرائه حتى لكأنه انزلهم في تحقيقه منزلة المعصومين من مطلق السقطات والسرقات الادبية التي ما سلموا منها على الاطلاق . . . لاسيما اذا قورنت منتجات قرائحهم بما يناظرها عند كل من ابن الفارض وابي نؤاس وابن زيدون وابن خفاجة ولسان الدين الخطيب والبهاء زهير وغيرهم ؟ لا ادري ..

اما بعد فان في نفسي بقية سأعلنها في الوقت المناسب عندما تسكن اليها الحاجة المقتضية المشتهاة .

النجف صدر الدين احمد

التضحية

للشاعر الشهير السيد احمد الصافي النجفي

وصديق عهدته ذا ثراء رافع الراس فوق هام الثريا
كان لا يلبس الرداء اذا لم يك يزهو لوناً ويبهج كيا
كان اما رأى بثوبي شقوقا راح يبدي سامي الحنو عليا
ثم فارقته فما غاب عن قلـ ـبي وان كان غاب عن ناظريا
ثم شاء الزمان ان نتلاقى إذ حباني الزمان عيشاً رضيا
كان بردي خلاف ما قد تعودت بهياً من الشقوق خليا
فاذا بالأوساخ تعلو رداه ولو العرض منه كان نقيا
رحت ابدي له الحنو ودمعي صار يهمي عليه من مقلتيا
فتمنيت ان لو انعكس الامر فيبقى يبدي الحنو عليا

دمشق : احمد الصافي النجفي